



قراءات في ديوان الشاعر سعيد الحوماني: "همسٌ في خيمة العشاق"
ولد الشاعر سعيد الحوماني في أرض عاملة ، في النبطية الفوقا سنة
1937م، وتلقى علومه الأولى في المدرسة "النورية" في البلدة ذاتها.
لكنه وقبل عمر الشباب، انتقل الى بيروت مع عائلته، واتجه الى
العمل التجاري، وراح يكافح من أجل لقمة عيش كريم، لكنه لم ينقطع
عن قراءة الكتب التراثية والحديثة، وخاصة الشعرية منها. وقد ضمت مكتبته الكثير من الأعمال
الكاملة لشعراء أمثال: المتنبي، والبحتري، والمعري، وأبو نواس، وابن زيدون الأندلسي... وتأثر
بالرومانسية، وخاصة بجماعة الرابطة القلمية أمثال : أبو ماضي ، وجبران، وأبو شبكة...
وبجمال وأناقة شعراء العصابة الأندلسية ومنهم: ميشال نعمان المعلوف، وفوزي المعلوف،
وشفيق المعلوف، والياس فرحات، وعقل الجر، وشكرالله الجر، وتوفيق قربان... وغيرهم من
أصحاب الكلمة الطيبة والإبداع المميز الذي سار مع الحداثة.
في مكتبته الخاصة مئات الدواوين الشعرية ويقول في ذلك: "هذه الكتب قرأتها مرات ومرات
حتى أصبحت في ذاكرتي. إنها خزان المعرفة لروحي وعقلي، ومنها انطلقت في رحاب الشعر،
وارتقيت في كتابة الموزون منه والمقفي، وكذلك الشعر الحديث، القائم على التفعيلة".
سعيد الحوماني عمل بجهد، وقرأ بجهد، والتزم الفكر القومي، ولا يزال صوته يصدح للعروبة
وللمجاهدين. تفتحت عبقريته الشعرية قبل عمر الشباب وهو يقول: أن أول قصيدة كتبتها يوم
هاجمت بريطانيا وفرنسا واسرائيل، مصر عام 1956، وأول قصيدة أنشدتها أمام الجمهور
قصيدة شهداء يحمر الشقيف، الذين قضاوا عام 1958.

كان نتاجه الشعري المنشور عشرة دواوين، وأما المخطوط فهو يفوق العشرة أيضاً. وتراوح شعره بين الغزل، والاجتماع، والطبيعة، والوطني، والانساني... وشارك في اللقاءات الشعرية في لبنان، وفي معظم البلاد العربية. وكتب للمجلات والصحف اللبنانية. وبقي صوته يترنم الحب والسهر والارق... وينشد للحبيبة أجمل الألحان، وأبهى الكلمات. وأقول فيه:

متألم يا أبي، وأنزف في العراء، اختلفنا على ظل شجرة وإخوتي، ولم نختلف على برميل نطف يقتلنا، يحرق وجودنا، اختلفنا على الفجر المنذور للشمس... ماذا سنفعل؟

الدخول الى عالم سعيد الحوماني الغزلي صعب ومخيف، لأن الولوج الى عالمه تكتنفه صعوبات، إذ لا تستطيع الدخول اليه بطريقة تقليدية بل بدينامية جديدة تقوم على تفكيك النص وإعادة تشكيل القصيدة. لأن الدفق الشعري، والصور الجمالية، واللغة القادرة على التعبير، والوصول الى أهدافها بيسر وسعادة، لتعبّر بين صبح ومساء عن قضايا متنوعة ومختلفة لموضوع واحد هو التغزل بالأنثى.

الأنثى عنده قضية تقوم على مبدأ: الإحترام و الكمال. سياسته بكلماته يرفرف فوق ناصية الحقول والعقول، ويسير فوق التراب النقي، ويزرع الشعر شجراً وارف الظلال، ويأخذنا اليه لنستظل معه ظلال الحبيبة، التي ترق المهج والعيون :

أُكتب حبيبي فقد أُرقت أجفاني فالحرف إن غبت عن عيني يرعاني
أُكتب حديثَ غرامٍ كي يسهّدي وأنت كالطفل مرميٌّ بأحضاني

حقاً إن الشعر صوت الأمم الراقية و الناهضة ، وفلسفته تصعد من الروح لتملأ الوجدان أحاسيس تتطلق لتغير العالم في ثورة وجدانية عاطفية، يديرها العقل، ويرعاها المنطق والتفكير المجرد، واللحن فيما وراء الطبيعة وظواهرها المتناقضة.

في شعر سعيد الحوماني يتّحد العاطفي بالعقلي، فالشعور والعاطفة محركان لنيران البراكين الروحية . أما ترتيب القصيدة، وتوليد أفكارها ومساره تُسلم للعقل والمنطق السليم .

آه ، لو أعلمُ سيدتي / كم أنت قاسيةٌ/ وعازمةٌ على قهري وقتلي/ لست أقوى أن أردَّ اللحظ عن عينيك/ أن أغوى وأغراني الهرب/ كل ما أخشاه أن يخرج قلبي...

في "همس في خيمة العشاق" يحاول الشاعر أن يؤسس لحظة شعرية تقوم على الصمت المسموع ، وفي هذا عبقرية لم تأخذ حقها في الكتابة و النقد في عالم تغيب عنه مجموعة من الحقائق أهمها: النظر الى أصحاب الأقلام المبدعة بعيداً عن تدخلات صاحب شأن أو جاه. وعلى الرغم من إنتاجه الفني، وموضوعاته التي كتبت وتناولت شتى الموضوعات الانسانية بشكل فني نادر ، لم ييأس ، لأن الكتابة عنده قضية.

وفي هذه النصوص الجميلة ، وقراءتها من الداخل ، عملٌ مضمّنٍ ومنسجم مع أخلاقيات النقد، ومع الأسئلة التي يطرحها الشاعر عن الحالة التي كُتبت فيها . والملاحظ أن سعيد الحوماني انفتح على التجارب الشعرية وقد وصل بهذا الإنفتاح الى حالة انسانية لا يبلغها إلا القادرون، حالة بعيدة عن البكاء والفجائية. وحقيقة أنه ابتعد عن الغرائبية والدخول في الرمز وعالمه الذي يشبه الأسطورة. وبقي يداعب أحلامه في عالم المحسوس ويلتقي مع الحبيبة ، و كأنه في محراب الحبّ.

إن تهتُّ

إلا لحظةً واحدةً، خذُ بيديَّ

لو بعدَ عمرٍ خائبٍ

من برجك العاجي القسيّ

إغمضْ عيوني ببديك

واسقي فمي من شفتيك

فأنا أكونُ بذرةَ الشوقِ اليك

هذا الدفق الرقيق والشفاف هو ما نسميه شعر الفطرة والطبيعة والصدق "وأشهر بيت أنت قائله، بيت إذا أنشدته صدقا".

وكم تمنيت أن يخلد شاعرنا بعالم الرمز والاسطورة، أي الى عالم الغموض ، لأن الشعر بطبيعة الحال يحمل الغموض و الغرابوات المختلفة.

والرمز هو ثورة في الشعر الحديث، حيث جاءنا من بلاد الغرب، وحاول أن يكسر جدران التقليد التي تمنع رياح التغيير من الوصول الى أفكارنا والى أرواحنا.

سعيد الحوماني تسكنه الهواجس الحسية والقضايا الكبرى، وهل هناك أكبر من قضية الانثى ؟

ويعتبر أنها هي الأصل، وهي الإستمرار والحياة ... ويقف أمامها متأملاً كناسك في محراب

الجمال والتكوين، يتأمل كطفل بريء ينظر لعبة جديدة ، ويسكب من أجلها ذاته، وعواطفه،

فيحلُّ فيها، وتحلُّ فيه على طريقة الصوفيين. ويطرح الأسئلة الجريئة عن الحب و السمو

والأرق والسهر والنجوم و الليل ، الإنتظار و التعب ولذة اللقاء والوصل . وهذه طريقة مهمة و

شاملة في ديوان سعيد الحوماني، ويدرك بحسه وعلمه ماهية الغزل وجوهره الفتان...

... لأول مرّة / أفهم أن عيوناً تكتب شعراً/ ونهوداً تُشعلُ ثورة/ ولأول مرّة/ يخرج من عينيّ

حريقٌ لسْتُ أراه/يتحركُ في جسدي شيءٌ لا أفهم معناه / وتحاورُ عيناَي المرمزِ حول السّرة

...ص 38

الشعر لدى الحوماني دينٌ وقضية، تحمله الأرواح إلينا، وتجيء به تحت سلطة العقل. وفي

ذلك نزعة لها قيمتها في عالم الشعر و الأدب، وهي نزعة تشكيلية تفتت النص وتعيد تركيبه.

وفي هذا يقول بعض النقاد: "لا إبداع ولا معرفة ، خارج إطار التفكيك و التشكيل".

ولأول مرة نقع على اسم حبيبة الشاعر، فليلي هي القضية واللوم و العتاب ، وهي الكلام

المطرز بالجمال والحب والأناقة.

حلوّة ليلي/ ولكني لا أعرفُ تطريز الكلام/ ولا استعارات الرتب/ لها عينان تشعان على الدنيا/
وثغرٌ كالرطب/ أو عطور البيلسان/ كل ما تحوي الخوابي من نبيذ/ أو عنب/ فهي مثل الشمس
حارقة/ ومثل العطر ناعمة/ ومثل السيف قاطعة، فسبح لله بما وهب / ص 16 .

المرأة في شعر سعيد الحوماني جميلة الصفات والألقاب، ويحملها الى تصدر المجال المطلق،
والبهجة الرائعة، والأريج الذي يفوح، والعبق المنتشر في جهات الكون، والبعيد عن كل شيء
وقبيح. المرأة إله شكّته روح الشاعر من تلقاء نفسها . روح تميزت بالطبع، كعاصفة ليست
مؤذية، وهي طبيعة ترتبط بوعي الشاعر لحبيبة متخيلة. وفي هذا أصاب الدقة، وتميز بالسرور
والتوليد، والعدل بالصفات الأخلاقية التي أسبغها على حبيبته بصدق العواطف، وجمال
المواقف. وأثبت أنه خبير بدواخل المرأة و بنظرتها للحياة و للحبيب.

سعيد الحوماني يدرك أهمية الكلمة ، ويختار لموضوعاته الغزلية الكلمات الدالة و الصائبة،
والتي تحرك ما جمد من شعور ووجدان وعواطف، إذ لا يخفى عليه شيء في هذا المجال.
ويبقى يعاقب نفسه بالأمنيات الهاربة والتي تفر من بين أصابعه، وتكتب نفسها على أوراق
الحب والإخلاص والصدق والمعاناة'.

حبيبة الشاعر تشبه الآلهة ميترا Mitra، تصادقه، يحس أنفاسها، ويشم رائحة بسمتها، فهي
حبيبة "وحدانية" غريبة ، في عالم غريب، مقدسة ويقيم لها معبد حبّ وهيام في شردة أفكاره
ومعانيه السامية.

"الآن عرفتُ بحضنك سيدتي سرّ البارود، وعرفتُ بأن الإغفاءة فوق يديك نسكٌ وجحودٌ،
وعرفتُ أن النبض يتيه في الشريان، وأن البحر إذا اهتاج يلاطمُ قعره". ص. 40
ولا شك في أن التضاد جميل ويبرز الحس والجمال" والصدُّ يظهر حسنه الضدّ".

ويأمل الشاعر أن تبقى سهوله خضراء، موشاة بأجمل غيوم وأحلى ، تتناغم وطيور الفجر،
وهمسة الصباح، وصلاة المغيب وشهر الحصادين المؤمنين بأن الخير وفير، والجمال نائم
وموجود.

موضوعاته في المرأة سلسلة، ومن خلالها يحاول أن يدرك جوهر القضايا التي تحيط بقلبها
وبجسدها، والتي تشكل وعيه وقدرته على تجسيد تلك الحالات، وهي بنظره... ايجابية بوجودها
وبوعيا... إنه يكره المرأة الأنانية والفارغة، التي لاتشبه الطير المتحرك. يكره المرأة التي لا
تطور نفسها، والتي بقيت مسلوبة الإرادة ولا تصرخ في وجه قيدها، وتتسع دائرة القضايا، وتفر
القصيدة الأنيقة من بين أصابعه كزوبعة طرية شفاقة تجسد الصدق وطهر العاطفة ، والمحبة
والوقار...

شاعر قريب من نور المعرفة ومن نور الروح النقية، وهو أصيل في حبه وانتمائه الى هذا
الجانب من الحياة ، ولم يغيره جرح مصلوب في ناحية الشمس، جرح ينزف فوق صليب الجهد
والتعب، وسنوات تعدت الثمانين. ويبقى مستنفراً للكتابة، وبما تجود به الروح... يكتب...
يتعب... يسهر... يثور... يتوتر... يبتسم ويحزن و ينشد "موطني" و"كلنا للوطن" و"يا شباب
العرب هيا"، و"يا جميلتي وحببتي"... وهذه الأناشيد الرائعة يعتبرها من أصل وجود الأمة
وبقائها.

والتقينا

وكلانا آهةً حرّى وشوقٌ وحنينٌ

فسقينا الظلّ من دمعاتنا والياسمين

وأتى الصبح يفيضُ سرّاً عشقِ العاشقين ص. 42

يرتقي بغزله الى مستوى العشق الصوفي. وهذا ما يدفع النار الكامنة بين ضلوعه للتوثب .
ولإضاءة النور لأجيال قادمة ، لإضاءة بيوت العقول والعواطف " شعره مضيء كالشمس ،

كالنور الذي لا ينقطع في فضاء الحياة، ويأتي إلينا بإيحاء سلس، ويرتفع ويرفعنا إلى مستوى الفن الحقيقي... شعره يمشي إليك، ويذهب بسحره إلى بيتك، حيث الكتب والأسفار، ويتسع من كوى العقل لفجراً تلو فجرٍ، وشذاً من زهور، ويحنو عليك ويبث في شرايينك الحياة" هكذا وصفه الدكتور مرتضى نورالدين.

لا تمرُّ يدايَ فوق حريرِ نهديكِ

مروراً عابراً

دون أن تُشعلَ فيها الزمهريرُ

كلّما أيقظتُ نهداً نائماً

شَبَّتْ النارُ

على خشبِ السريرِ ص. 83

أيتها الكلمات الراقية، إجلبني لنا السعادة والفرح، وأعيدي أرواحنا إلى طفولة بريئة ، في زمن أصبحنا فيه جدران الإسمنت أقوى من جمال الكلمات، و طوّقت أجسادنا وأرواحنا وعقولنا بكل سخيّف ووضيغ.

أيتها الكلمات ، يا ابنة النور والإيحاء، أشركي بمجدٍ كان لنا، فأعيديه إلينا، وأضيئي علينا الفجر والحروف. وتكرمي، وافتحي العقول المقفلة أمام الجمال وإبداع الآلهة . لأن الإبداع في الشعر يحيي الأفراد والجماعات من مرض التصحر والجفاف.
إن تهتُّ/ خُدُّ بيدي/ من برجك العاجي القسيّ/ أغمض عيوني بيديك، واسقِ فمي من شفّتك/
فأما أكون بذرة الشوق إليك / خذني فلا تقسو عليّ.

من الممكن والسهل استخلاص عقيدة الشاعر والتي نلخصها بالصدق والوفاء والأصالة...
تستخلص ذلك من خلال الكلمات ، وترانيم الحروف والجمال، والتجليّ والحلول... وكل ذلك

جاء بإسلوب مميز سال على أوراق طاهرة. مثل: "تهت، القسي، بجنوني، فمي، شففتيك، خائب، حريق، دموع، التمرغ، مت، همسة، برهة، المئذنة... أقم الصلاة... ألخ"

هذه العناصر المكونة لقاموس الشاعر، والتي منها انطلقت تعابير العزل والإيحاء، هي رمز ثقافة متعددة الإتجاهات... وتبقى صلوات سعيد الحوماتي تستحم في مياه السعادة والعذاب بين أصوات الغيوم والمطر الراعد والمؤنس في آن.

وفي خضم الألم الوطني راح يغني نار البرق، ونار الأرض ونار الروح. وبقي في الظل، لم يأخذ حقه وهو الشاعر الشامل، وهو من أقرب الشعراء الى أرواحنا، وأفضل من كتب عن الحب والمرأة شعراً يهب الحياة لبذور الأرض، ويهب الجمال للآتين الى هذا الوجود.

من بضعة أعوام

أفتشُ عنك في دفاتري

فتشتُ عن وجهك كلَّ الصفحات

فتشتُ عن أسمك كلَّ الكلمات

وسألتُ أهلَ السحرِ والتنجيم من غادٍ وآتٍ

ودخلتُ أدهى الظلمات ص 129

غداً أيها الكبير سيأتي جيل، ويقرأ مزاميرك ويفرح، و ينشد شعرك بين أحلام الصباح والمساء.

سيأتي جيل يقرأ سحرك وما أبقاه الندى فوق شففتيك...

عش مطمئناً لأن حراس الكلمة الطيبة في هيئة تكريم العطاء المميز، أدركوا سرَّ أبداعك،

وفتحوا قلوبهم لك، ليبقى مطرك يحيي بذار الأرواح...